الوهابية .. عقيدة ودولة

للدكتور عبد الحميد البطريق
استاذ كرسي التاريخ الحديث
ورئيس قسم التاريخ والجغرافيا

في أوائل القرن الثامن عشر وقع في جزيرة العرب حادث خطير ، غير تاريخها السياسي ، وقلب نظامها الاجتماعي ، وأثر كثيراً في نظامها الاقتصادي وخرج بها عن عزلتها الطويلة إلى مجرى السياسة العالمية ، ذلك الحادث هو ظهور مصلح كبير يدعو إلى مبادىء جديدة غايتها الاصلاح الديني ، وهدفها إرجاع الإسلام إلى عهد البساطة وتحكيم القرآن ، والتشدد كل التشدد في محاربة ماتعتقده من البدع والقضاء على الآفات التي ترتكب باسم الدين .

في سنة ١١١٦هـ (١٧٠٣م) ولد للشيخ عبد الوهاب بن سليمان التميمي قاضي (العيينه) بوادي حنيفه بنجد ولدا أسماه محمداً ، وكان بيت هذا القاضي ملتقى القاصدين من طلاب العلم وبعض علماء الدين يجتمعون فيه للبحث والمجادلة ، وتمضون الوقت في جدال فقهي ، أو نقاش ديني ، وكان الطفل وقد شب وأصبح صبياً ، يحلو له أن يراقب مجلس أبيه عن كثب فينصت لأحاديث القوم ومجادلاتهم ، يفضل هذا على الاجتماع بأقرانه من الصبية ، الذين اعتزلهم لكي يستمع إلى ما كان يثيره أبوه من جدال وبحوث . فنشأ حاد الفهم ، وقاد الذهن ، سريع الحفظ ، فصيح اللفظ ، واسع الثقافة بالنسبة لأترابه ومعاصريه ، حفظ القرآن قبل بلوغه العشر ، ونما جسمه وذهنه نمواً سريعاً ، فزوجه أبوه في سن مبكرة عندما كان في الثالثة عشرة ، وهيأه للعمرة

والحج فأدى المناسك فى مكة ، ثم ذهب لزيارة قبر الرسول فى المدينة حيث أقام شهرين كاملين . وقد رأى الفتى أثناء رحلته بالحجاز من المنكرات والبدع التى ترتكب باسم الدين ما أثار حفيظته ، وشغل ذهنه وتفكيره .

عاد الشاب بعد ذلك إلى « حريملة » حيث كان أبوه قد انتقل قاضياً فيها ، وهناك فى حريملة قرأ الفقه على أبيه على مذهب الإمام ابن حنبل ، ولقنه أبوه شيئاً من العلوم الفقهية والدينية التى يحسنها فكان محمد مبرزاً فى حل ما يعرض فى مجلس أبيه من المشكلات الفقهية ، حتى كان أبوه يقول عنه « قد أفدت من ولدى محمد فوائد شتى فى الأحكام »[1] .

رحل الشاب بعد ذلك طلبا للمزيد من العلم فزار الحجاز والاحساء والبصرة ، وهناك فى البصرة أطال الإقامة فقد راق له أن يدرس اللغة والحديث على أحد علمائها الأفذاذ الشيخ محمد المجموعى ، وكانت البصرة مرتعاً خصيباً لغلاة الشيعة ، الذين كانوا أكثر الفرق الإسلامية تعظيما للأولياء . فهال الشاب ما رأى وما سمع من البدع الكثيرة التى ألصقوها بالدين ، وتوارثها الأبناء عن الآباء . فلم يستطع السكوت ، وبدأ يجهر بالنقد ويحمل على أهل البصرة حملة شديدة أثارتهم عليه ، فأخذوا فى أول الأمر يجادلونه ويناقشونه فينتصر عليهم حتى يسكتهم ، ولكنه كان عنيفاً فى حملاته عليهم ، قاسياً عليهم فى زجره كل من يذكر اسم أحد الأولياء والصالحين محاطاً بهالة من التعظيم والتقديس ، شديد المراس فى مجادلاته معهم ، فأثارهم عليه حتى أخرجوه من ديارهم ، فكر راجعاً إلى حريملة بنجد .

أقام فى حريملة فى كنف أبيه . يدعو إلى التوحيد وينادى بإبطال الدعوة لغير الله ، وأخلص لدعوته كل الإخلاص مكرساً لها قلبه ولسانه وقلمه ، وبدأ

---

(١) حسين بن غنام . كتاب روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات الاسلام ص ٣٠ .

يكتب مؤلفه المشهور (التوحيد الذى هو حق الله على العبيد) وقد بنى العالم الشاب كتابه على حديث صحيح للنبى صلى الله عليه وسلم « من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل » وإلى قوله فى حديث آخر « إنه لا يستغاث بى ، وإنما يستغاث بالله » . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ياصفية عمة الرسول لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

استغل الشاب هذين الحديثين ليعلن أن التوسل إلى الله بالنبى شرك ، وأنه لا وساطة لنبى أو مخلوق بين الله وعباده . وكان لهذه الدعوة الجريئة صدى قوى فى إقليم العارض . فى حريملة والعيينة والدرعية والرياض ، وانقسم الناس إزاء الدعوة الجديدة فريقين ، فريق شايع آراءه وآمن بدعوته ، وعاهده على نصرته ، وفريق أنكر عليه دعوته وهو الفريق الأغلب ، اشتد بهم الحنق عليه فقاموا يريدون الفتك به ، ففر هارباً إلى العيينة مسقط رأسه .

هناك فى العيينة تبدأ دعوة الشيخ فى الذيوع والانتشار ، فقد كان نصيرها الأول أمير العيينة (عثمان بن معمر) الذى عاهد الشيخ على أن يكون سيفه المسلول ووضع جنوده رهن إشارته ، فاتفقا على العمل الذى أضرم نيران الثورة فى ربوع نجد . إذ طلب إليه الشيخ أن يهدم القباب المقامة على قبور الصحابة ويقطع الأشجار التى يتبرك بها الناس ، فامتثل ابن معمر للأمر وخرج فى جمع من أصحابه وأتباعه يتقدمهم الشيخ يحملون المعاول فهدموا القباب والقبور والمساجد المقامة فى الجبيلة على قبور الصحابة وقطعوا الأشجار التى يتبرك بها الناس .

ويحدثنا المؤرخون النجديون الذين عاصروه ، كتلميذه حسين بن

غنام[1] ، أن الخرافات والبدع التى انتشرت فى بلاد العرب فى ذلك الوقت كانت تحتاج إلى مصلح حازم ، وأن الدين الإسلامى كان فى أشد الحاجة إلى حركة إصلاحية تقوم على النصح والسيف معاً ، فقد كان من الصعب اقتلاع ما اعتنقوه وأصبح لاصقاً بالدين كأساس من أسسه ، ويصف ابن غنام بعض هذه العادات فيقول إن المرأة كانت إذا ماعنست تطوف بالذكر من النخل وتلتزمه ، ثم تقول « يافحل الفحول ، أريد زوجاً قبل الحلول » وأن الناس إذا مرض لهم مريض وعز شفاؤه ، ذبحوا الذبائح وذكروا أسماء الجان والشياطين عليها ، ولم يذكروا اسم الله ، ثم أخذوا أطايب هذه اللحوم وألقوها فى الفلوات زاعمين أن الجن والشياطين يأتون هذه اللحوم فيأكلونها ويتم بذلك رضاهم على المريض فيبرأ . وكانت عندهم شجرة يسمونها شجرة (الذيب) يعتقدون فيها عقائد مضحكة ويفعلون لديها أفعالا منكرة ، فالمرأة إذا ولدت مولوداً ذكراً جاءت تلك الشجرة وعلقت عليها الخرق لتدفع عن ولدها الحسد والموت ، كذلك تفعل الأرملة التى تريد زواجا ، والعاقر التى تريد ولداً ، والعانس التى تريد خطيباً . وقد حمل الشيخ محمد بنفسه على تلك الشجرة المقدسة التى كانت مزاراً للناس ومهبطاً للتمنيات والنذور ، فانهال عليها بمعوله حتى هوت إلى الأرض .

وكانوا فى الجبيلة يؤمون قبر زيد بن الخطاب لتحسين حالهم وإجابة دعواتهم فأراد الشيخ التخلص من هذه القبة التى تعلو قبره ، ففاتح فى هذا تلميذه أمير العيينة قائلا « دعنا نهدم هذه القبة التى وضعت على الباطل وضل بها الناس ، فقال دونكها فاهدمها فقال الشيخ « إنى أخاف من أهل الجبيلة أن ينصروها ويوقعو بنا ، ولا أستطيع هدمها إلا وأنت معى » فسار معه عثمان بن معمر فى ستمائة جندى من جنوده ، فحاول أهل الجبيلة منعهم

---

(١) روضة الافهام لابن غنام ص ٢٥ .

ولكنهم رأوا أن ابن معمر جاد فى حربهم ، فكفوا عن المقاومة وخلوا بينهم وبينها . فتقدم الجميع نحو القبة ، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يبدأ بهدمها حتى عثمان بن معمر نفسه تهيب الموقف ، عندئذ تقدم الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وأعمل فيها معوله فتبعه الناس وتمت تسويتها بالأرض فى وقت قصير ، وبات الناس ينتظرون ما عساه يحدث للشيخ محمد من الشر والبلاء .

أما الحادث الذى أثار القوم ، وأقام المعارضة ضده فهو أمره برجم امرأة زانية ثبت زناها بإقرارها وبشهادة أربعة أعيان ، حيث جيء بها الى الساحة وأمر الشيخ أن تشد عليها ثيابها وترجم ، وقد بدأ برجمها الأمير عثمان بن معمر ثم تبعه الراجون . سرى الخبر كوميض البرق فى البوادى والحضر ، واجتمع أهل الحسا خاصة لأنهم كانوا من أشد العرب استمتاعاً بالإباحية والفجور ومن أكثرهم تهاوناً فى الدين ، فكتب أميرهم سليمان آل محمد رئيس بنى خالد — الذى كان نفوذه يشمل بلاد العارض نفسها — إلى ابن معمر الذى كان عاملا له ، يهدد الشيخ المصلح بالقتل إذا كان لا يرجع عن غيه « فى تخريب قلوب المسلمين وإفساد دينهم » ثم عاد الأمير سليمان فكتب إلى ابن معمر يأمره بقتل محمد بن عبد الوهاب[1] . وأخيراً رأى ابن معمر أن خير طريقة تحفظ عليه منصبه ، وتخلص صاحبه هى أن يرحل الشيخ من العيينة .

رأى الشيخ أن يسير الى الدرعية معقل آل سعود ومقرهم وكان أميرها يومئذ محمد بن سعود ، ونزل على أحد تلاميذه عبد الله بن سويلم العرينى) فما سمع أهل الدرعية بوصوله حتى غص بيت عبد الله بن سويلم بأنصار الشيخ ومريديه ، وعلى رأسهم ثنيان بن سعود أخو أمير الدرعية

---

(١) ابن غنام ص ٢٢ .

محمد بن سعود ، وما لبثا أن أخا على أخيهم الأمير أن يقابل الشيخ فتردد أولا ، فلم يجدا بداً من أن يعرضا دعوة الشيخ وتعاليمه على (موضى بنت أبي وهطان زوجة أخيهما الأمير ، فقد عهدا فيها الذكاء وأصالة الرأى ، فما سمعت منهما الأسس التى قامت عليها دعوة الشيخ حتى ارتاحت إليها وأقبلت على زوجها الأمير قائلة « إن هذا الرجل قد ساقه الله إليك وهو غنيمة ، فاغتنم ما خصك الله به » وكان لكلمة هذه الزوجة الصالحة أثر بالغ فى نفس ابن سعود فدعا أخاه (مشارى) وأمره أن يدعو الشيخ لمقابلته ، فقال مشارى مستعطفاً أخاه « سر إليه برجلك ، وأظهر تعظيمه وتوقيره ، ليسلم من أذى الناس » فسار ابن سعود الى بيت عبد الله بن سويلم ورحب بالشيخ قائلا « أبشر ببلد خير من بلادك وبالعز والمنعة » فأجابه الشيخ « وأنا أبشرك بالعز والتمكين إذا عاهدتنى على كلمة التوحيد التى دعا إليها الرسل كلهم » وتلى كلمات الترحيب عهد بين الأمير والشيخ تعهد فيه ابن سعود أن ينشر بحد السيف دين التوحيد وأن يجاهد فى سبيله ، بكل ما أوتى من قوة وجاه ، وتعهد الشيخ بأن يبقى فى الدرعية مرشداً ومعلماً ، وهكذا تحالفت القوة الروحية والقوة الزمنية ، واستعد صاحب الشوكة لحماية صاحب الدعوة ، وأباح له أن يجهر بدعوته على أن يضع تحت تصرفه قوته وجاهه وماله وآله .

كان لهذا العهد دوى هائل فى أنحاء الجزيرة العربية ، وتشجع الشيخ فتوسع فى دعوته ، وصرح بكل ما كان يختلج فى صدره ، وما كان يجمجم به لسانه فيبديه أحياناً ويكتمه أحياناً أخرى . وأصبح مطمئناً على دعوته وعلى نفسه بعد أن بايع الأمير محمد بن سعود إماماً يتبعه المسلمون وكانت هذه البيعة فى عام ١١٥٨ هـ (١٧٤٥ م [1] .

بدأ الناس يقبلون على الدرعية من كل حدب وصوب ، منهم من يريد

---

(١) ابن بشر . عنوان المجد فى تاريخ نجد الجزء الأول ص ١٥ .

بذلك الفكاهة والتسلية ، ومنهم من يريد أن يسمع الخبر ليذيعه ، ومنهم الشاك الحائر ، ومنهم من يلتمس الهداية والفائدة ، وشرع الشيخ يعرض مبادئه وتعاليمه على هؤلاء وأولئك فى حجة دامغة ، ولسان فصيح . فاستجاب له أكثر أهل الدرعية وفريق كبير من الزائرين واستقرت فى قلوبهم دعوة التوحيد ، وأشرب حب الشيخ قلوبهم ، فأصبح مسموع الكلمة ، نافذ الرأى ، وأضحت الدرعية مدينة التوحيد تنبعث منها المبادىء الجديدة ، حيث أخذ الشيخ يكتب مؤلفاته القيمة ويراسل الرؤساء والكبراء داعياً إياهم لدين التوحيد . أما مجلسه فى الدرعية ، فكان مهبط الطلاب ومقصد العلماء ، وكان لأولاده أيضاً مجالس وحلقات للدرس لا تقل عن مجلس أبيهم ، وقد رأى ابن بشر بنفسه هذه الحلقات فوصفها فى كتابه قائلا « قد رأيت لهؤلاء الخمسة مجالس ومحافل للتدريس فى بلد الدرعية ، وعندهم الطلبة الكثيرون من سائر نواحى نجد ، ومن أهل صنعاء وزبير وعمان وغيرها من الأقطار[1] .

وكان الشيخ حريصا كل الحرص على أن يبين للناس أنه لم يأت لهم بجديد (إنى لم آت بجهالة ، بل أقولها ولله الحمد إن ربى هدانى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ملة إبراهيم حنيفاً . وما كان من المشركين ، ولست ولله الحمد أدعو إلى مذهب صوفى أو غيره ، بل أدعو إلى الله وحده لاشريك له ، وأدعو إلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم التى أوصى بها أول أمته وآخرهم)[2] .

وكان له ولكل من أبنائه مدرسة قرب بيته يتردد عليها الطلاب صباح مساء يدرسون فيها الحديث والتفسير والفقه والأصول ، وقد سعى الشيخ حتى أجرى الأمير على هؤلاء الطلاب نفقة مستديمة من بيت المال ، تسهيلا لهم وتيسيراً عليهم ، حتى يقبل غيرهم على الدرعية ثم يكونوا فى النهاية رسل المبادىء الجديدة فى ربوعهم وقراهم . وما لبثت هذه المدارس

(١) ابن بشر جـ ١ ص ١٢ .

(٢) مجموعة التوحيد : من الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الشيخ عبد الله الاحسائى طبعة دلهى .

الصغيرة أن أصبحت مقصد الطلاب من سائر أنحاء جزيرة العرب حتى ليحصى ابن بشر عددهم بعشرة آلاف[1] . وكان التعليم بالمجان بل كان للأذكياء جوائز من مال وكساء .

لم تكن مهمة الشيخ فى الدرعية مقصورة على التعليم فقط ، بل كان مستشاراً لمحمد بن سعود ثم لابنه عبد العزيز ، وكان فى الوقت نفسه قاضياً للدرعية . ومديراً لشئونها العلمية والدينية ومستشاراً لبيت المال فى توزيع الأعطية والمرتبات من ضرائب الأخماس والزكاة ، إذ كانت الأموال ترد الى الدرعية فيقوم الشيخ بترتيب الدخل والمنصرف وتوزيع ميزانية الدولة بما يراه موافقا للأحكام الشرعية وإنماء الدولة السعودية الناشئة . وظل قابضاً على زمام الأمور حتى نجح عبد العزيز فى الاستيلاء على الرياض ، وانقادت له نجد كلها ، فاعتزل الشيخ السياسة وعكف على نشر مبادئه فى جميع أنحاء الجزيرة العربية إذ كان جميع الأمراء المجاورين عندما تعاهد مع ابن سعود معادين لدعوته ، وكذلك كان العلماء من أهل الشيعة والسنة ، فقد رموه بالكفر والزندقة ، وعدوه خارجياً رافضياً ، وأوغروا عليه صدور العامة . أما هو فلم يلن ولم يتزعزع أمام هذه العواصف بل بقى صامداً فى وجه أعدائه واثقا بالله وبقوة ابن سعود .

وكان يعلم كنه الدعاية التى يقوم بها خصومه خارج نجد ولا سيما فى الحجاز ، فكتب إلى علماء مكة رسالة طويلة جاء فيها «نحن ولله الحمد متبعون لا مبتدعون على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، أمرنا الناس بإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ... فأشاعوا أنا نسب الصالحين ، وأنا لسنا على جادة العلماء ، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب ، وأشاعوا عنا أموراً يستحى العاقل من ذكرها ، وأنا أخبركم بما نحن عليه ليتبين الأمر لكم وتعلموا الحقيقة »[2] .

---

(١) ابن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد جـ ١ ص ١٧ .

(٢) من الشيخ محمد بن عبد الوهاب « الى العلماء الاعلام فى بلد الله الحرام » من مجموعة التوحيد طبع دلهى .

وكانت الدرعية خير مركز تنشأ فيه الحركة الوهابية حتى تتسع وتشيع ، وخصوصاً أنها تمتاز على جاراتها بوقوعها فى منخفض قدره خمسة فراسخ من الغرب إلى الشرق يطوقه جبل طويق وفروعه وليس لهـذا المنخفض غير طريقين ضيقين لا يسع الغربى منهما مرور أكثر من جمل واحد ، فهى قلعة حصينة بطبيعتها ، وهى حصينة بنهر الباطن الذى يجرى شتاء فيخصب وادى حنيفة وينبت الفـاكهة والقمح والشعير والذرة وهى خيرات تساعدها على احتمال حصار طويل[1] .

وأصبحت الدرعية بفضله أكبر مدينة فى بلاد العرب ، يؤمها الطلاب من اليمن وعمان وحضرموت والحجاز والعراق والشام ، وقد رأى ابن بشر الدرعيه فى هذا العهد وقال فى وصفها نظرت إلى موسمها وأنا فى مكان مرتفع ، وهو فى الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربيه التى لآل سعود ، المعروفه بالطريف ، وبين منازلها الشرقيه المعروفة بالبحيرى التى فيها أبناء الشيخ[2] ، ورأيت موسم الرجال فى جانب ، وموسم النساء فى جانب آخر ، وما فيهما من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام ، وكثرة مايتعاطون من البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وهو مد البصر لاتسمع فيه إلا كدوى النحل الأصوات والدكاكين إلى جانبيه الشرقى والغربى . وفيها من الثياب والقماش والألبسة والسلاح مالا يوصف) .

ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومبادؤه جديدة على الإسلام فهو يتفق مع الإمام أحمد بن حنبل ومع ابن تيمية فى رجوعهم جميعاً إلى المصدر الأعلى لتلك المبادىء ، وهو القرآن الكريم ، ويتلاقى الجميع أيضاً فى نظرتهم إلى السنة فابن حنبل لايقبل من الأحاديث إلا ما أجمع عليه الأئمة

---

(١) محمد احمد حسونة ـ اصل الوهابيين وهى محاضرة ألقاها بقاعة الجمعية الجغرافية فى ٢٢ مارس سنة ١٩٣٢ .

(٢) أبناؤه حسين الذى تولى القضاء بعد أبيه فى الدرعية ، عبد الرحمن تعلم فى الازهر بمصر ودرس به بعد ذلك فى رواق الحنابلة ، عبد الله له مؤلفات كثيرة تولى القضاء بعد أخيه حسين ، على الذى برع فى التفسير والحديث والفقه ، وقد رفض أن يتولى منصبه القضاء ، ابراهيم كان ملما واستاذا لابن بشر .

وهى نفس القاعدة التى وضحها ابن عبد الوهاب فى قوله « الحق والصواب ماجاءت به السنة والكتاب والسنة فى عرف العلماء المتأخرين هى السليمة من الشبهات »[١] أما ابن تيمية فقد قام فى أواخر القرن السابع الهجرى يدعو لمبادىء ابن حنبل ، وينشر مذهبه ، ويبين أن مذاهب الأئمة كلها لاتختلف فى الحق بعضها عن بعض ، وقد ألف الرسائل فى الحديث والعبادات وزيارة القبور ، والواقع أن محمد بن عبد الوهاب ماهو إلا تلميذ لابن حنبل وابن تيمية قرأ لهما كثيراً فتشبع بآرائهما ودعا إليها ، ولكن فى صورة عنيفة ، زاد من عنفها شدة حنقه على البدع والخرافات التى انتشرت فى جزيرة العرب فى عهده . وقيام أمراء آل سعود حاملين السيف لدعوة لمبادئه بالقوة والعنف . أما هو فيعترف بأنه مدين بمعتقداته لابن حنبل أما رأيه فى ابن تيمية فيتلخص فى قوله عنه فى إحدى رسائله لست أعلم أحداً يجارى ابن يتيمه فى علم الحديث والتفسير بعد الإمام أحمد بن حنبل) ولعل مابين ابن تيمية وابن عبد الوهات من تشابه فيما لقياه من قومهما من اضطهاد وعنت ، قد قرب ابن تيمية إلى نفس ابن عبد الوهاب ، فقد ظهرا الأول فى ذلك العصر المضطرب ، عصر الحروب الصليبية فى عنفوانها ، والغارات التترية فى عنفوانها فلقيته المحن منذ طفولته ، وقد كان أبوه من كبار الحنابلة وأئمتهم ، وكذلك كان أبو الزعيم الوهابى ، فشب كل منهما يمثل قوة نزعات الحنابلة فى التشدد فى أمر البدع ، وقد كان ابن تيمية أيضاً يحارب البدع التى غيرت الإسلام فى عقائده وأحكامه عن حقيقته الأولى ، ويحارب أيضاً آثار الفلسفة فى الإسلام[٢] . وكذلك كان الوهابيون يتلقون المؤلفات التى يعتقدون أنها توقع الناس فى الشرك ، فكانوا أعداء علم المنطق وخصوصاً كتبه القديمة الممزوجة بالفلسفة اليونانية[٣] .

---

(١) محمد بن عبد الوهاب كشف الشبهات (نقله ابن غنام فى كتابه الفصل الثانى ص ٣٠) .

(٢) مصطفى عبد الرازق ـ الجانب الفلسفى لابن تيمية (نشرته مجلة الحديث ص ٧٠٨ ـ ٧١٥ عدد ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٩) .

(٣) سليمان بن سحمان النجدى ـ الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية ـ الطبعة الاولى ص ٤٥ .

وأخيراً يتلاقيان فيما كان كل منهما يبذله من الجهد فى محاربة زيارة قبر النبى أو قبور الأولياء ، فقد كان ابن تيمية يعتقد أن شد الرحال إلى قبر النبى معصية . وكذلك قال ابن عبد الوهاب لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه[1] ، ولكن الوهابيين كانوا حريصين على ألا يفهم أحد أنهم يقلدون ابن تيمية أو ابن القيم وفى هذا يقول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب « إن الإمام بن القيم وشيخه ابن تيمية إماما حق من أهل السنة وكتبهم عندنا من أعز الكتب ، إلا أنا غير مقلدين لهم فى كل مسألة ، فإن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعلوم مخالفتنا لهما فى عدة مسائل منها طلاق الثلاث بلفظ واحد فى مجلس ، فإنا نقول به تبعا للأئمة الأربعة ، ونرى الوقف صحيحاً والنذر جائزاً ويجب الوفاء به فى غير المعصية[2] .

ونستطيع بعد ذلك أن نستعرض أهم المبادىء الوهابية على ضوء رسائل ابن عبد الوهاب وكتبه إلى أمراء البلاد ومشايخ القبائل وعلماء الإسلام والمؤلفات التى كتبها أبناؤه وتلاميذه الذين درسوا عليه وفهموا دعوته ، وما كتبه ملوك الدولة السعودية من الرسائل والكتب ، وما ألفه الرحالة الأجانب الذين زاروا جزيرة العرب . إبان اشتداد الدعوة الوهابية .

كان أول مادعا إليه ابن عبد الوهاب منع دعوة الأموات والاستغاثة بهم ، فهو يشدد فى النهى عن دعاء غير الله حتى ليعتبر من يدعو غير الله زائفاً عن الدين ، خارجاً على أصول دعوة القرآن والسنة ، ويعزز حكمه عليهم بالآيات والأحاديث كقوله تعالى (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً وقوله (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) وفى الحديث (وإذا سألت فاسأل الله وعند الوهابيين « إن من حرف شيئاً من العبادة لغير الله فقد اتخذ إلها آخر

---

(١) عبد الله بن محمد عبد الوهاب ، رسالة كتبها بعد دخول الوهابيين مكة سنة ١٢١٨هـ طبعتها مطبعة المنار سنة ١٣٤٢ هـ .

(٢) سليمان بن سحمان ص ٥٣ .

فلا يجب إذن أن يدعى إلا الله وحده ، فمن دعا غير الله واستغاث بغيره فى كشف الشدائد وجلب الفوائد فقد أشرك بالله ، والله لا يغفر للمشرك . فجميع الأنبياء والأولياء لا يجعلون وسائل ولا وسائط بين الله والخلق فى جلب الخير أو دفع الشر ، ولا يجعل الله لهم من حقه شيئاً ، لأن حقه تعالى غير جنس حقهم ، فحق النبى وحق الأولياء محبتهم والترضى عنهم والإيمان بكراماتهم وليس دعاؤهم ليجلبوا خيراً لا يقدر على جلبه إلا الله ، أو ليدفعوا سوءاً لا يقدر على دفعه إلا الله[1] .

فالتوحيد فى رأى ابن عبد الوهاب هو الإخلاص لعبادة الله وحده فقد أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى قوم يتعبدون ويتصدقون ويحجون ويذكرون الله ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ، يقولون نريد منهم التقرب إلى الله وشفاعتهم عنده ، فبعث الله محمداً يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد بعض حق الله لا يصلح منه شىء لا لنبى مرسل ولا لنبى مقرب[2] .

وهكذا يكفر الوهابيون كل من دعا غير الله أو سأل ميتاً واستغاث به فى قضاء حاجاته أو تفريج كربه ، وكذلك من ذبح القربان لغير الله أو نجد له أو خافه خوف السراء أو اتكل عليه أو عبده ، ولا يكتفى الوهابيون بتكفير هؤلاء فقط بل يأخذون على عاتقهم قتلهم حتى لا تكون فتنة[3] . ولا يفرق الوهابيون بين من يعبد الأصنام ومن يتوسل بقبور الأنبياء والصالحين بل كان ابن عبد الوهاب يتهم أعداءه بأن شركهم أشد من شرك الكفار ، لأن المشركين الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء أوثاناً مع الله إلا فى وقت الرخاء وأما فى وقت الشدة فيخلصون لله وحده

---

(١) عبد العزيز بن سعود . رسالة كتبها بعنوان (من عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى من يراه من العلماء والقضاة فى الحرمين والشام ومصر والعراق وسائر علماء الشرق والغرب) .

(٢) محمد بن عبد الوهاب . كتاب كشف الشبهات نقله ابن غنام فى كتابه ص ٣٤ .

(٣) سعود بن عبد العزيز ، كتابه الى حاكم الشام يوسف باشا سنة ١٢٢٥ هـ نقلا عن تاريخ جودت الجزء التاسع ص ٣٦٢ — ٣٦٤ ، مطبعة دار الطباعة باستامبول سنة ١٢٩٢ هـ .

كما قال تعالى « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » وقوله « وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا إليه » وقوله « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » .

فمن دعا نبياً أو ولياً أوغيرهما وسأله قضاء حاجاته كان كافراً حلال الدم والمال ويستشهد ابن عبد الوهاب على صحة رأيه بأن أحداً من أصحاب النبي لم يفكر فى أن يأتى إلى قبره ليسأله ويستغيث به ، فقد نهاهم النبي عن ذلك فى قوله « لا تتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً ، وأن تسليمكم يبلغنى أينما كنتم » وكان عبد العزيز بن سعود يخشى أن يستغل المعارضون رأى الوهابيين فيرموهم بأنهم ينتقدون زيارة النبي فقال فى إحدى رسائله « إن زيارة قبر النبي مشروعة بشرط عدم فعل محظور عند القبر ، وألا يتخذ القبر مكاناً للصلاة لأن النبي نفسه لعن الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فى قوله اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) وعاد فاستشهد بما قاله الإمام مالك (لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو ، بل يسلم ويمضى)[1] .

يختلف محمد بن عبد الوهاب مع معارضيه أيضا فى مسألة الشفاعة فعنده أن الإنسان إذا مات موحداً استشفع الله فيه نبيه ، فيجب أن يدعو الإنسان الله أن يشفع فيه النبي . فثار عليه الناس وقالوا هذا منطق مقلوب . فرد عليهم يقول (أنا لا أنكر الرسول ولا أتبرأ منه بل هو الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى « قل لله الشفاعة جميعا » ولا تكون إلا منه بعد إذنه كما قال « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » ، فالنبي لا يشفع فى أحد حتى يأذن الله فيه .

---

(١) احمد بن ناصر عثمان النجدى ، الفوائد العذاب فى الرد على من لم يحكم السنة والكتاب (وهو الذى ارسله عبد العزيز بن سعود الى مكة سنة ١٢١١ هـ بناء على طلبه شريف مكة ليناظر علماء الحرم الشريف !

وقد قال أيضا « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » وهو لا يرضى إلا التوحيد فاذا كانت الشفاعة كلها لله . ولا تكون إلا بعد إذنه» ولا يشفع النبي في أحد حتى يأذن الله فيه » ولا يأذن بالشفاعة إلا لأهل التوحيد تبين أن الشفاعة كلها لله .

ويرد الشيخ على من يقول أن الله أعطى الشفاعة لمحمد ونحن نطلبها منه قائلا « أن الله أعطاه الشفاعة ، ونهانا عن طلبها منه عندما قال تعالى: ولا تدعو مع الله أحدا[1]) . ويشتد الجدل بينه وبين معارضيه فيعترضون عليه بأن الشرك عبادة الاصنام؟ فيرد عليهم قائلا: وما عبادة الأصنام؟ أتظنون بأن عباد الأصنام كانوا يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها. انما كان أولئك يقولون انها تقربنا إلى الله زلفى وتدفع عنا غضب الله ببركتها ، ولا فرق بين مايفعله عباد الأصنام ، وهؤلاء الذين يقفون عند الأحجار والبناء الذي على القبور وغيرها ففعلهم هو عبادة الأصنام

تلك هي وجهة نظر الشيخ محمد عبد الوهاب ، في تفكير أولئك المتوسلين بقبور الأولياء والصالحين .

فالتوحيد عنده لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، فان عمل بالتوحيد عملا ظاهرا وهو لا يفهمه فهو منافق « وهو في نظره شر من الكافر الخالص[2] .

فالوهابيون يقولون إن الفرق بيننا وبين أعدائنا في مسألة الشفاعة أنا نقول « اللهم شفع نبينا محمدا فينا يوم القيامة » أو اللهم شفع فينا عبادك الصالحين » أما اعداؤنا فيقولون « يارسول الله أو ياولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركني أو أغثني او أشفني او انصرني على عدوي ، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه غير الله ، وذلك شرك أكبر ، قاتل عليه رسول الله .

---

(١) مجموعة التوحيد ص ٤٦ طبعة دلهي .
(٢) ابن غنام ص ٢٧ .

أما التوسل كأن يقول القائل «اللهم إنى أتوسل اليك بجاه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، أو بحق عبدك فلان ...الخ» ، فهذه بدعة مذمومة ، ويتفق محمد بن عبد الوهاب مع ابن تيمية فى تقسيم التوسل إلى ثلاث درجات :

الأولى — أن يأتى المرء الى قبر نبي أو ولى أو مايعتقد أنه قبر نبي أو رجل صالح ويسأله حاجته فى مالا يقدر عليه إلا الله[1] ، فهذا شرك صحيح يجب أن يستتاب صاحبه ، فإن تاب كان بها وإلا قتل .

الثانية — أن يطلب المرء من النبي أو اولى أو الشيخ الصالح أن يدعو له كأن يقول : ادع لى كما كان الصحابة يطلبون من النبي الدعاء ، هذا مشروع فى الحى لا فى الميت من الانبياء والصالحين .

الثالثة — أن يقول المرء : اللهم بجاه فلان عبدك أو ببركة فلان أسألك كذا وكذا ، وهذه أخف الدرجات .

تلك هى درجات التوسل الثلاث ، الأولى منها هى الشرك الصحيح فيحل ابن تيمية وابن عبد الوهاب قتل صاحبه ان لم يتب ، أما الدرجتان الاخريان فلا يجوز قتل من عد توسله منهما .

وعندما قامت الدولة السعودية الأولى تدعو للمبادىء الجديدة ، كان أمراؤها حريصين على أن يبينوا للمسلمين فى مختلف أقطـــار الأرض أسس دعوتهم .

وقد لخص سعود الكبير مبادىء الوهابيين فيما أرسله إلى يوسف باشا حاكم الشام ، قال[2] « يقيننا الذى نحن عليه ، وندعو الناس إليه ، هـــو الإخلاص لعبادة الله وحده ، فلا تذبح القربان إلا لله ، ولا نرجو إلا هو ولا نخاف إلا منه ولا نتوكل إلا عليه ، وأننا نتبع الرسول صلى

---

(١) ذكر ابن تيمية ان شفاء الامراض والنصر على الاعداء وغفران الذنوب وتعلم القرآن واصلاح القلوب ، كلها من الامور التى لا يجوزان تطلب من غير الله .

(١) تاريخ احمد جودت ، الجزء التاسع ص٣٦٢ — ٣٦٤ ، مطبعة استنبول سنة ١٢٩٢ هـ باللغة التركية .

الله عليه وسلم ، وتوجب طاعته على جميع المكلفين ، ونستن بسنته ، ونهتدى بهداية الله . ولا نعبد إلا الله ولا نتقرب إلا إليه . . . . فمن دعا غير الله واستغاث بغيره فى كشف الشدائد وجلب الفوائد فقد أشرك بالله ، والله لا يغفر المشرك .... وأول ما ندعو الناس إليه أن من استغاث بالله وحده وأخلص له العبادة ، وعمل ما فرض عليه فهو أخونا المسلم ، له ما لنا ، وعليه ما علينا ، ومن لم يصنع ذلك بل أقام على شركه كفرناه وقاتلناه كما أمرنا الله بذلك ، وننهى عن المنكر من الزنا والسرقة وشرب الخمر والحشيشة وما يشاكلها ، وأكل أموال الناس بالباطل ونأخذ الحق من القوى للضعيف وننصف المظلوم من الظالم ، وننهى عن سائر المنكرات ونزيل البدع السيئات المحدثات ومن لم يفعل ذلك لم يعصم دمه وماله ، ومن فعل ذلك فهو مسلم لله ، له ما للمسلمين » .

أما البدع السيئات التى يشير إليها سعود الكبير فمنها إقامة المزارات ، ونصب القباب على القبور ، والأدعية الفاسدة . والأذكار التى لم ترد عن صاحب الشريعة ، ويؤكد الوهابيون أن النبى نفسه نهى عن البناء على القبور بدليل ماروواه مسلم عن أبى الهياج الأسدى ، قال على ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا أدع تمثالا إلا طمسته ولا قبراً مشرفا إلا سويته .. »

وأنه نهى أيضا عن أن يجصص القبر أو يكتب عليه ، وأنه لعن من أسرج بها المصابيح أو القناديل حيث قال (لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) وأنه ندد بأولئك الذين يذهبون الى قبور الأنبياء والأولياء فيستغيثون بهم ويسجدون عند قبورهم وينذرون لهم فى قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فالوهابيون اذن لايدعون فى هذا الى مبادىء جديدة على الاسلام ولكنهم يدعون الى الأصلاح والعودة الى القرآن فى نقائه لكنهم يبالغون فى معارضة كل ما يعتقدون أنه

بدعة مكروهه ، كالتزين بالحلى والجواهر ، وشرب الدخان ومايشبهه .

لم تكن الحركة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب ديناً جديداً كما ظن بعض المؤرخين الأوربيين ، ولم تكن مذهباً جديداً فى الإسلام كما ظن الأتراك وشاع بين المسلمين من الحجاج ، ولكن تتلخص تلك الحركة فى أن محمد بن عبد الوهاب كان رجلا من رجال الإصلاح الدينى ، وجه جهوده لإصلاح ما أفسده الجهل فى الجزيرة العربية وتقويم ما أعوج من سلوك العرب فى نجد ونشر المبادىء الإسلامية فى نقائها وبساطتها .

ولكن أغلب الناس أساءوا فهم ابن عبد الوهاب كما يحدث دائماً لكل مصلح دينى أواجتماعى . أساء فهمه أصدقاؤه وأعداؤه على السواء فإن أغلب أتباعه تغالوا أشد المغالاة فى تكفير المسلمين ففيهم فئة كبيرة من البدو الذين اعتنقوا مبادىء ابن عبد الوهاب ، كانوا لايفهمون الإسلام على حقيقته ، ومن ثم لم يدركوا دعوة الشيخ على حقيقتها واعتقدوا أن الإنحراف القليل عن تعليماته وآرائه ، كفر وزندقة ، وبذلك أصبح أغلب المسلمين ممن يخالفونهم كفاراً يحق قتلهم .

أما أعداؤه فقد ظنوا أنه أتى بمذهب جديد فى الإسلام ، يقلل من واجب التقديس والتبجيل نحو النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك أعتقد هؤلاء بدورهم أن الشيخ مبتدع ، وأن أنصاره كفار .

وقد إزداد هذا الاعتقاد رسوخا بسبب الدعاية التى كان ينشرها الشريف غالب أمير مكة بين الحجاج وأمراء الحج ضد تلك الحركة ، وما كان يذيعه الحجاج أنفسهم عند عودتهم إلى وطنهم من إشاعات وأنباء مثيرة بعثت الهلع فى نفوس الراغبين فى الحج .

وقد أعتاد الولاة العثمانيون فى بغداد ودمشق والقاهرة أن يبالغوا فى وصف سوء المعاملة التى يلقاها الحجاج من الوهابيين ، والأخطار التى تتعرض

لها قوافل الحجاج ، وذلك لكى يبرروا موقفهم إذا فشل جنودهم المرافقون للمحامل فى حماية الحجاج من قطاع الطرق ، بل إن من هؤلاء الولاة من كان يتمنى عدم سفر المحمل الذى كان يكلفهم كثيراً من النفقات[1] لذلك كله أعتقد المسلمون فى أنحاء الشرق أن الحركة الوهابية قد جاءت بتعاليم جديدة تخالف أحكام الإسلام .

إن من يدرس تاريخ نجد بخاصة وتاريخ بلاد العرب بعامة قبل ظهور الحركة الاصلاحية الكبيرة ، ليجد أن حالة هذه البلاد كانت تستدعى قيام نهضة إصلاحية واسعة النطاق ، تجتث جذور الفتن والخرافات التى شاعت فى الجزيرة العربية واذا كان الوهابيون قد حملوا مخالفيهم على قبول آرائهم بالسيف والنار ، وأكرهوهم بالقتال على الدخول تحت رايتهم وطاعتهم ، فما ذلك إلا لأنه لا سبيل إلى إصلاح هؤلاء القوم إلا بالقوة والجبروت ، فقد كان العرب فى ذلك العصر فى حالة من التأخر والجهل والفوضى يصعب معها التفاهم بالحجة والاقناع ، وكانت نجد على وجه الخصوص فى عزلة عن العالم ، والعالم فى عزلة عنها ، فما كانت سوى قسم قاحل من بلاد العرب المجدبة ، وما كان أهلها سوى أعراب وزراع يجهلون طرق المعيشة الصحيحة كل الجهل ، ولا يعرفون أصول الدين الصحيح ، آمنوا بالخرافات البدع ، وبعدوا بالاسلام عن تعاليمه الأولى ومبادئه السامية . وارتكبوا ما أشرنا اليه مما ثارت له نفس محمد بن عبد الوهاب من تعظيم الاحجار والاشجار والقبور وأصحاب القبور ، فكانت عقلية المسلمين هناك عقلية عجيبة ضيقة ، فقبور الأولياء والصالحين تمتلىء بزائريها ، يذرفون فوق ترابها دموع الندم والاستغفار ، متوسلين بأصحابها ، راجين منهم العفو والغفران والشفاعة ، مريقين دماء الهدايا والقرابين ، مقدمين النذور المختلفة ، وكانت بعض المخلوقات الحافية العارية يتخذها الناس أولياء الله المقربين ، يعلمون الغيب ، ويملكون الحياة والموت ، فلم يكن أمام السعوديين إلا دعوة هؤلاء الى الرجوع إلى

(1) Burckhardts Notes. P. 276.

القرآن الكريم وتنقية الدين من مثل هذه الأدران والخزعبلات ، ولكنهم كانوا يدركون أنهم ان يستطيعوا أن يغيروا ما بهؤلاء القوم بالوعظ واقامة البرهان فحسب ، بل لابد من تحكيم السيف أيضا ان عز الاقناع ، ولم تنفع الحجة . لذلك كانت رسائلهم الى القبائل تسبق جيوشهم تقول « القرآن فى يد والسيف فى الاخرى »[1]

وهكذا أخذت الدعوة تزحف من الدرعية ، نحو بلاد نجد الأخرى ، حتى إذا نجحت فى نجد نجاحا كبيراً ، خرجت من هناك قوية معتدة بنفسها نحو العراق والحجاز ، ثم رنت بعد ذلك نحو التوسع والامتداد فطمعت فى الشام وأغلب الظن أنه لولا أن المصريين والأتراك اجتمعوا على حرب هذه الدعوة وحاربوه فى داره بقوى وأسلحة لاعهد لاهل نجد بها ، لكان من المرجو أن توحد هذه الدعوة كلمة العرب فى القرن الثانى عشر والثالث عشر للهجرة كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم فى القرن الأول .

وقد أفادت نجد من هذه الثورة الدينية القوية ، فأصبح لها شأن يذكر ، وتاريخ يدرس ، وهناك ظاهرة يلحظها المؤرخون حتى النجديون منهم ، أن بلاد نجد منذ أن قبلت الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا الى عهد هذه الدعوة لم يظهر فيها عالم واحد من العلماء المنتجين ، فقد كانت طوال هذه القرون تعيش عيشة الأعراب والزراع والرعاة وما كان الخلفاء ولا الأمراء يهبونها شيئا من عنايهم ، وذلك لجدب بلادهم وفقرها الطبيعى ، ولم يظهر من بينهم طوال هذه القرون زعيم يجتمعون حوله فيسمو بهم الى مصاف الشعوب الحية ، فلما قامت الحركة الوهابية أحدثت ثورة عنيفة فى أفكار النجديين ، وبعثت بلاد العرب عامة من مرقدها وأطلقت الأذهان من عقالها . فكثر المؤلفون والمنتجون ، وأصبحت الدرعية كما وصفناها منبع الحركة الاصلاحية الجديدة .

---

(1) Jean Raymond : P. 7.